جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

مادة: النقد العربي القديم

المحاضرة الخامسة

الجاحظ ومفهوم اللفظ والمعنى

مدرس المادة: م.د. محمد صلاح شجاع

1448هـ 2026م

الجاحظ ومفهوم اللفظ والمعنى :

(1) شخصيّة الجاحظ : هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، المتوفى سنة : (255ه) ، ولُقِّبَ بالجاحظ ؛ لجحوظِ عينيهِ .

كانَ يعملُ سمّاكاً في سوق البصرة ، ولم يمنعه ذلك من مواصلة التّعلّم ؛ إذْ كانَ من روّاد المربد ، عاشَ الجاحظ في العصر الذهبيّ، فقد سمِعَ من أبي عُبيدة معمر بن المثنى ، ومن أبي زيدٍ الأنصاريّ ، والأصمعي ، والأخفش ، وكان مفرِطاً في القراءة ؛ إذْ كان يستأجر دكاكين الورّاقين يبيتُ فيها ويقرأ ويكتب ما في الدّكاكين من كتبٍ .

فقد وَفَدَ إلى مدينة بغداد ، ومثُلَ بين يديّ المأمون ؛ فأُعجِبَ بأُسلوبهِ ، وعيّنهُ رئيساً لديوان الرّسائل ؛ غيرَ أنّ الجاحظ اعتَذَرَ عن ذلك ؛ لأنّ شغله الشاغل القراءة والتأليف .

وكانت عقيدته الدينيّة على مذهب المعتزلة ، وبما أنّ هذا المعتقد يقوم على الجدل والمنطق والنقاش الطويل ؛ فقد اختلَفَ مع أستاذِهِ إبراهيم بن سيّار النظام ؛ فانشقّ عنه وأسّسّ فرقةً عُرِفت بـــ (الجاحظية) ، وقد أُصِيبَ أواخر عمرهِ بالفالج والنّقرس ؛ فأصبح حبيساً في دارِهِ ؛ حتى سقطت عليه الكتب ؛ فماتَ عن عمرٍ يناهز الخامسة والتسعين .

(2) الناقد : النقد هو تحليل النص وفهمه ؛ لإبراز عناصر الجمال ومواضع الإساءة فيه ، وهذه مَهَمّة صعبة على جيل النّشئ الجديد ، ولا بد إذن من شروطٍ يجب توافرها في طالب هذا العلم ، وللجاحظ في هذا شروط ، هي:

أ- الإحاطة والمعرفة الدقيقة بعلوم اللغة العربية وبأسرارها ؛ من اختلاف الدلالات حتى اختلاف المعاني .

ب- المقدرة على تذوّق النّصّ ، وتحسّس مواضع الجمال ، ومواطن الإساءة فيه (الذوق الرفيع) الذي يميّز بين البديع المخترَع والرّديء المقلَّد .

ج= أنْ يكون لديه مقدارٌ لا يُستهانُ بهِ من الثقافة العامة ؛ تُساعِدُهُ على فهم النصوص وتأويلها .

وإنّ معظم آراء الجاحظ النقدية موزّعة أو مبثوثة في كتابِهِ(البيان والتبيين) ، ومن آرائِهِ النقديّة في علماءِ عصرِهِ ؛ قوله : ((طلبتُ علم الشعر عند الأصمعي ؛ فوجدته لا يُحسِن إلا غريبهِ ، فرجعتُ إلى الأخفش ؛ فوجدته لا يُتقِن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة ؛ فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب: كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبد الملك الزيات)) ، ونفهم من هذا الكلام : أنّ الجاحظ يرى : أنْ يكون الناقد موسوعيّاً محيطاً بالعلوم كلّها ، ولا بأسَ في أنْ يُتقِنَ واحدةً منها أكثر من غيرها ، فالناقد المكتمل عند الجاحظ ، هو : ذلك الأديب الذي يُلِمّ بجوهر الشعر وبتذّوقهُ ، ويتحسّسُ مواطن الجمال فيهِ ، على نحو: الديباجة الكريمة، والطبع المتمكن ، والسبك الجيّد، وعلى كلّ كلامٍ له ماء ورونق ، ولهُ حسان المعاني .

ومن آرائهِ أيضاً: أنّه قد عابَ على أبي عمرو الشّيبانيّ ، وقد رآهُ يكتُبُ شعراً من أفواهِ جُلسائِهِ ، والجاحظ يرى أنّ ذلك الشعر ليس بجيّدٍ ؛ لأنّه رأى أنّ أصحابِهِ ليست لهم موهبة شعريّة .

وعلى العموم ، فإنّ الجاحظ قد رأى أنّ العامّة من الناس ، لا يتمكنّوا من أنْ يكونوا حكَماً على الشعر ؛ نتيجةً لفسادِ أذواقهم ؛ فضلاً عن فقدانهم الثقافة العامة الراصدة ؛ فهم يضربون المثل بابن القرية ، على الفصاحة والفروسية والخطابة ؛ بأنّه أعلى مرتبةً من ابن المدينة***(تُلاحظ آراء الجاحظ النقدية في كتابِهِ (البيان والتبيين :41/1 ، وما بعدها)

(3) مفهوم اللفظ والمعنى :

يجب أن تكون اللفظة متناسقة مع المعنى ، لا زيادة فيها ولا نقصان ، مثل الثوب المخاط مخصوصاً لصاحبه ؛ فهو يُناسبُ جِسمَهُ ؛ فاللفظُ وعاءٌ والمعنى مادّة ؛ فإنْ كانَ الوِعاءُ كبيراً والمادّة صغيرة أو قليلة ؛ ضاعتْ فيهِ ، وإنْ كانَ الوعاءُ صغيراً والمادة كبيرة أو كثيرة ؛ طفحتْ منهُ ، وفي الحالتينِ كليهِما عيبٌ ؛ ألا وهو انعدام التناسق بين الزيادة والنقصان .

فالجاحظ قد قالَ : ((والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقروي، والمدنيّ. وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحّة الطبع وجودة السّبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير)) ، ووفقاً لقول الجاحظ ؛ فإنّ اللّاحقين من بعدِهِ قد توهّموا في هظم رأيهِ ، وَعدُّوه من أنصار الألفاظ على المعاني ؛ وأنّه بذلك أسّس مدرسةً نقديّةً ، من آثارِها : أبو هلال العسكريّ ، وقبله : ابن قتيبة .

أقوال طائفة من الأدباء وآرائهم في آراء الجاحظ :

1- بدوي طَبانَة: علّلَ سبب اندفاع الجاحظ في التمسّك بالألفاظ دون المعاني إلى الشّطَط الّذي يقودُهُ إلى التّعلّق بمذهب الصّنعة الذي أعماه عن تقدير المعنى ، ومنزلة اللفظ مساوية لمنزلة المعنى في تقدير القيمة الأدبية .

2- محمد زغلول سلام: استنتجَ رأياً غريباً ، وعَزَاهُ إلى الجاحظ ؛ وهي أنّ الإعجاز القرآنيّ مرتَبِطٌ بالألفاظ دون معاني القرآن الكريم .

3- درويش : لمْ يُعْنَ الجاحظ بالألفاظ المفردة ؛ وإنّما عُنِيَ بالصّياغة والاسلوب .

4- د. هند حسين طه : آثَرَ اللفظ على المعنى .

5- الأستاذ عتيق : الجاحظ يذكر المعاني وشأنها في البلاغة .

6- د. العشماويّ : رأى أنّ عبارة اللفظ والمعنى ؛ على الرغم من شهرتها ؛ إلاّ أنّها غامضة ، ولم تحدّد مفهوم المعنى تحديداً صحيحاً .

والحقيقة الصادقة هي : إنّ الجاحظ لم يكن من أنصار الألفاظ على المعاني ، ولا من الذين عَنوا بالصياغة والأُسلوب فحسْب ، وهو لم يفصلْ بين الألفاظ والمعاني ، بتحديد مفهوم المعنى عنده ؛ بل عُنِيْ بالنّصّ الأدبيّ بكلّ ما يحمله من معانٍ عبّرَ عنها بألفاظٍ وأساليب وأوزان ، فالنّصّ الأدبيّ الجيّد في نظَره هو: ما كانت أفكاره ومعانيه جيّدة

ومقبولة في النفس ، وكان أُسلوبه جميلاً ، فإذا انفرد بواحدة من هاتين المزيتين دون الآخرى ؛ أصابه الخلل ، وخلاصة رأي الجاحظ يمكن أن نفهمها من قوله:

((إنَّ المعاني إذا كُسِيت الألفاظَ الكريمة، وأُلبِسَت الأوصافَ الرفيعةَ، تحوَّلَتْ في العيون عن مقاديرِ صُوَرِها ، وأُريت على حقائق أقدارها بقدر ما زُيِّنَتْ ، وحسب ما زُخرفت)) .

---

(4) شروط الألفاظ عند الجاحظ :

(أ) أن تكون الألفاظ جيدة ، شيّقة ، عذبة ، فخمة ، ولا ينبغي لها أنْ تكون عامّيةً أو ساقطةً سوقيّاً ولا وحشيّةً ، ويقصد بالوحشية : ألّا تكون الكلمة من الشواذ أو من الكلمات النادرة الاستعمال .

(ب) فصاحة اللفظ : وهي أن يكون الكلام مستقيماً ولا تخرج دِلالته على استعمال العرب للكلمة .

(ج) ألاّ تكون متكلّفةً ، ثقيلةً ـ متنافرة الحروف ، قريبة المخارج ، على نحو قول الشاعر:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ *** وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

((فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، ومنزّهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ؛ صنَعَ في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة)) .

---

(5) اختلاف الألفاظ باختلاف البيئة :

رأى الجاحظ أنّ المفردات متفاوتة بتفاوت بيئات المتكلمين ، فلغة البادية غير لغة الحاضرة ، والوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشيُّ من الناس(الأعرابي)

، وأهل الأمصار يتكلّمون بلغة النازلين فيهم من الأعراب ؛ وعليهِ ، تتباين ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشّام ، فلغة أو لهجة مكّة أفصحُ من غيرها ؛ لأنّها لهجةُ القرآن ، ووجد الجاحظ أنّ لغة لهجة العراق – البصرة والكوفة – قد تأثّرت باللغات الأعجمية ، وفيها كلمات أعجميّة عديدة .

---

(6) اختلاف الأساليب باختلاف المتحدثين :

يتباين أسلوب كلّ أديبٍ عن الأدباء الآخرين ؛ نتيجة تباين ما يمتلكه كلُّ واحدٍ منهم من ثروةٍ لغويّةٍ ، فضلاً عن تباين من يخاطبونهم من جماهير ؛ والأصالة هي التي تجعل لصاحبها أُسلوباً خاصّاً بهِ ، يميّزه عن الآخرين ، وقد قال الجاحظ : ((لكلّ قومٍ ألفاظٌ حظيت عندهم ، وكذلك كلّ بليغٍ في الأرض وصاحبِ كلامٍ منثورٍ، وكلّ شاعرٍ في الأرض وصاحب كلام موزون؛ فلا بدّ من أنْ يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعيانها؛ ليديرها في كلامِهِ)) ، وقد طبّقَ هذه النظرية على أصحاب المِلَل والنّحل والفِرَق ، فقد اختصّ كلٌّ منهم بأفكارٍ ومعانٍ محدّدةٍ، وهذا ما أتاحَ له فرصة معرفة أساليب الشعراء والكتابة ، وبالتالي ؛ الحكم على نتاجاتهم الأدبية

حكم على خطبة لمعاوية ***. (في : البيان والتبيين : 81/1)

الخطبة في كتاب(عيون الأخبار) هي لمعاوية ، وكذلك في كتاب (إعجاز القرآن) وفي كتاب (العقد الفريد) ؛ غير أنّها في (شرح نهج البلاغة) معزوّة إلى عليّ بن أبي طالب ؛ فحكَمَ بينهما الجاحظ ، ورأى أنّ الخطبة لعليّ بن أبي طالب ، لا لمعاوية ؛ بوساطة تتبّعِهِ ومعرفتهِ أسلوب الرّجلين وفصاحتهما ، فعليّ أقدر على الخطاب من معاوية .

---

(7) تباين الأساليب بتباين المعاني:

من المعاني ما لا يجّمل إلّا بألفاظ مشاكلة له ، وقد قالَ : ((أنّ سخيفَ الألفاظِ مُشاكلٌ لسخيفِ المعاني ، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني)).(البيان والتبيين:126/1) .

وقرّر الجاحظ : أنّ ضروب المعاني تؤدّي إلى تباين الأساليب بتباين الألفاظ المستعملة والأفكار التي يوردها المتحدث ، وهذا يعني: المطابقة واستعمال المجاز من الاستعارة والكناية ، وأشارَ إلى الإيجاز والإطناب ، وهما أسلوبان من الأساليب التي استعملها العرب ؛ إلاّ أنّه يميلُ إلى الإيجاز ؛ لأنّ النفوس تطلبُهُ، وقال: ((وأحسن الكلام ما كان قليلُهُ يُغنيكَ عن كثيرُهُ ، ومعناهُ في ظاهرِ لفظِهِ)) .

ومن هنا بدأ يبحث عن أسرار الإعجاز القرآنيّ .

---

(8) القديم والحديث:

اطّلَعَ الجاحظ على شعر ما قبل الإسلام ، وشعر الإسلام ، وحتى الشعراء المعاصرين له ، وكان بحقّ ناقداً متجرّداً ؛ إذْ لم يتعصّبْ للقديم ولا للمُحدّث ؛ بل أصدَرَ حكماً عامّاً قال فيهِ : ((إنّ عامّة العرب والأعراب هم أشعرُ من عامّة المولّدين ، وإنّ شعراء البدو أشعرُ من شعراءِ الأمصار)) .

وكانت مادّة حكمِهِ ؛ نتاج هؤلاء الأقوام .

وقال الدكتور إحسان عبّاس: ((إنّ الجاحظ نَظَرَ في هذه المواقف نظرةً عِرقِيّةً)) ، والصواب هو على العكس ؛ بل إنّ الجاحظ كانَ مدافِعاً عن العربية والعرب أمام المدّ الشّعوبي وافتراءاته ، فقال : ((فكلّ شيءٍ للعرب ، إنّما هو بديهة وارتجال ؛ لأنّهم كانوا أمّيين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلّفون)) .

والعربيّ الأصيل صاحب اللغة ، وله ثروة كبيرة من المفردات ، فهو مطبوع ، أمّا المولّد ، فحتى وإنْ صَحَّتْ لهُ موهبة ؛ فإنّهُ قصير نَفَسٍ ومحدود الثّروة مهما كبُرَتْ .

ورأى أنّ بشّار بنُ بُرْد ، وأبا نوّاس من أفضل الشعراء المولّدين ، وفضَّلَ بشّاراً على عمرو بنُ كلثوم في وصف الجيش ، حينما قالَ عمرو :

تبني سنابكهم من فوق أرؤسهم *** سقفا كواكبه البيض المباتير

وقال بشّار:

كأنّ مثار النّقع فوق رؤوسهم *** وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فالمعنى واللّفظ عند بشّار أفضل .

فضلاً عن تفضيلِهِ أبياتاً لأبي نوّاس على المهلهل بن ربيعة ، فإنْ دلَّ ذلك على شيءٍ ؛ فإنّما يَدُلّ على انعدام تعَصُّبِهِ للقديم على حساب المُحْدَث ، ولا للمُحدث على حساب القديم ؛ بل تظهر الحياديّة في أحكامِهِ كلِّها ،،، وهذا هو النّاقد الحقّ ..